

التفسير الإعلامي لأدب الرحلات «رحلة في فكر د. حسين نصار»



د. عبد العزيز شرف *

«سندباد»

يشهد العالم نهضة كبيرة في دراسات الاتصال الجماهيري، وقد
ظهرت مدارس فلسفية ونظريات علمية في هذا المجال، ولكنني أتوقف
هنا عند نظرية «ميونخ» التي عرضها مؤسسها أسفيروس B. M.
Aswerus لارتباطها بالموضوع الذي أتصدى له هنا في هذا المقال.

* أستاذ الإعلام ، ونائب مدير التحرير ، ورئيس تحرير القسم الأدبي بجريدة الأهرام المصرية.

تفاعلية مؤثرة ومتأثرة، تأخذ وتعطي، وترسل وتستقبل.

وفي مرحلة الاتصال الفكري، يصبح الهدف داخلياً في نفوس الناس وفي ضمائرهم. والوصول إلى الحقيقة يقتضى الأمر أن يتفاعل الجميع عن طريق الاتصال الفكري، وهكذا يمكن القول إن المرحلة الأولى تمثل المرحلة الجماعية، والثانية تمثل المرحلة الوجدانية، والثالثة تمثل المرحلة الفكرية أو العقلية، أو الإدراكية. . ويؤكد علماء الإعلام أن المسألة ليست أخباراً تعطي وجماهير تتلقى هذه الأخبار، لأن هذا مفهوم الإعلام، ولكن المسألة أخطر من ذلك فهي عملية تفاعل مستمر بين أجزاء الأمة والمجتمع. ورجل الإعلام المسؤول عن حرية وسلامة الحوار والاتصال في المجتمع (١).

وليست الحرية هنا بمفهوم حق النشر، أو حق الكلام، فهذا هو مفهوم حرية الإعلام بالمعنى الكلاسيكي، ولكن المقصود هنا هو حرية تدفق المعلومات،

وخلاصة هذه النظرية أنها لا تركز على دراسة وسائل الاتصال، بقدر ما تركز على دراسة الظاهرة الاجتماعية نفسها، والتفاعل الذي يجري بين الناس، وهنا تصبح هذه الدراسة موضوعاً إنسانياً بالمعنى العلمي للكلمة، فلقد كان الاتصال ولا يزال حقيقة اجتماعية واقعة قبل اختراع الطباعة والكتابة ذاتها، وسواء كان التعبير الظاهري كلاماً أو رسوماً، فإن المهم هو الحقيقة الكامنة وراء هذه المظاهر ألا وهي عملية الاتصال الجماهيري التي تربط أجزاء الجماعة، وتجعلها وحدة متكاملة.

وبفضل الاتصال - Communica-

tion يكون المجتمع في حالة تفاعل مستمر بمعنى التجدد والانبعاث والحركة، وسواء كان المجتمع بدائياً قديماً، أو غرضياً يرمى إلى تحقيق أهداف خارجية، أو فكرياً تدور فيه المعاني والآراء والأفكار ذات المغزى، فإن ظاهرة «الاتصال»، هي القوة المحركة للمجتمع، ولكنها حركة

(١) د. عبد العزيز شرف، المدخل إلى وسائل الإعلام، القاهرة، دار الكتاب، ص: ١٢٨.

والخاصة «بالاتصال الفكري»، النابع من ضمير الكاتب كعربي وكمسلم، يستهدف الوصول إلى: «أبعاد» الحقيقة، حتى يتم التفاعل العربي عن طريق الاتصال الفكري.

ذلك أن الاتصال الفكري هو الذي يواجه العقبات القائمة في طريق التدفق العالمي للآراء والأفكار، والتي تتمثل على الصعيد الدولي في «الاختلافات الثقافية، والعوائق، السيكلوجية التي تحول دون التفاهم، وعدم وجود المنشآت الضرورية لإنتاج الرسائل وتوزيعها واستقبالها، ولتدفق المعلومات من مصادر متعددة، وتضيف اليونسكو إلى هذه العقبات: الاعتبارات السياسية والاقتصادية المتعلقة بكافة المحاولات المبذولة لتحقيق «حرية وتوازن تدفق المعلومات» سواء في نطاق الأمة الواحدة، أو بين الأمم المتعددة».

ومن الواضح أن اللغة عامل رئيسي في الاتصالات الدولية، فهي تحدد مدى تأثير الرسائل وفهمها. وبالمقياس إلى الاتصال

واستمرار الحوار دون عوائق، وحق الجميع في التعبير، سواء على المستويات الوجدانية، أو الفعلية، أو العقلية، ويصبح رجل الإعلام بمثابة الحكم، ولكنه لا يكون محتكراً للفكر، أو مسيطراً على الحوار. فإذا كان الإعلامي، يعرف ما هو المنوع فيتجنبه، فإن الاتصال لابد أن يعرف — بضميره — ما هو الذي تطلبه الجماهير فيعاونها على أن تناله (١).

و«الاتصال» على هذا النحو يصبح تجسيدا أميناً لروح الأمة العربية، تأسيساً على الفهم القائل بأن الاتصال هو: «التعبير الموضوعي عن عقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها».

وفي هذا الفهم يتأكد لنا صدق هذا التفسير الاتصالي لأدب الرحلات، في هذا الكتاب الذي تستمتع بقراءته للكاتب المبدع الأسناد: عبد الله خياط، والذي جعل عنوانه موحياً ومعبراً عن المقصود: «رحلة ذات أبعاد»، ذلك أنه ينطلق من المقولة التي استهللنا بها هذا الحديث،

(١) د. عبد العزيز شرف، وسائل الإعلام ومشكلة الثقافة، القاهرة، هيئة الكتاب، ص: ١٢٧.

وهذه هي أهم وظائف الاتصال بكافة أنماطه وصوره».

وقد كان «الترليمان» من الرواد الأوائل في دراسة الاتصال الجماهيري في كتابه «الرأى العام» الذى صدر سنة ١٩٢٢م، والذى ذهب فيه إلى أن الإنسان مخلوق محدود الإدراك، فهو لا يستطيع أن يفهم العالم، أو يتصوره بمجرد ملاحظته، وإنما يتأتى فهم الإنسان للعالم الذى يعيش فيه على مراحل من النضج والتطور والحصول على المعلومات فالعالم الموضوعى الذى نتعامل معه سياسياً واقتصادياً واجتماعياً يقع خارج نطاق إحساسنا، وخارج حدود بصرنا وعقلنا.

«يذهب ليتمان» إلى أن المسائل العامة كالسياسة والحكم والتربية والانتخابات والاصلاحات وغيرها، تتأثر بما يصدره الناس من أحكام نابغة من «الصور الذهنية» التى يكوّنونها عن أنفسهم وعن الآخرين، وهذه هى آراؤهم. أما الرأى العام فيتكون من حصيلة هذه الصور المنتشرة فى رؤوس الجماهير، وهو القوة

الفكرى فى الوطن العربى، نجد أن اللغة المشتركة تذلل الكثير من العقبات التى تواجه دول العالم الثالث، فيما يتعلق بنشر اللغة القومية داخل البلاد، والأخرى باللغات الواجب استعمالها فى الاتصالات الدولية الأوسع نطاقاً.

وعلى الرغم من تميز الوطن العربى بلغته الفصحى المشتركة، فإن الاتصال الفكرى يتوقف على انتقال الرموز ذات المعنى وتبادلها بين الأفراد.

كما أن أوجه النشاطات الجماعية، ومعانيها الثقافية، تتوقف إلى حد كبير على الخبرات المشتركة فى المعانى. فالاتصال فى جوهره «هو نقل المعانى عن طريق الرموز المتعارف عليها، والتى يستخدمها الإنسان من أجل التوافق النفسى مع العالم الخارجى. فعن طريق الاتصال يدخل الأفراد فى علاقات اجتماعية حيوية مع بعضهم البعض، أو يبتاعونها الخاصة. وعن طريق استخدام الرموز - أيضاً - يستطيع البشر أن يسيطروا على بيئتهم المادية والثقافية،

نفسه بغلاف من الأشكال اللغوية والصور الفنية الأسطورية، أو على حد تعبير «ايكيتوس»: (أن ما يقلق الإنسان ويخيفه ليست هي الأشياء، وإنما آراؤه وتخیلاته عن هذه الأشياء).

وفى ضوء هذا المفهوم يمكن النظر إلى أدب الرحلات بعامة، والأدب العربى خاصة، على أنه يبدع نوعاً من البيئة الصورية عند الإنسان عن العالم الموضوعى، ولذلك ينظر إلى هذا الأدب - أدب الرحلات - أحياناً على أنه يغلف الإنسان بنوع من الواقع البديل، وعلى هذا يكون الاتصال هو أروع الأمور جميعاً - أو كما قال «جون ديوى»: فإن المجتمع لا يستمر فى وجوده بالاتصال فقط، ولكنه نشأ بالاتصال أيضاً.

وفى كتابه «أدب الرحلة» يصحبنا أستاذنا الدكتور: حسين نصار معاً، فالرحلة المكانية تمتد من الأدب العربى إلى العالم، والرحلة الزمانية تتضح من مضمون الكتاب الذى يعبر عن التواصل «التاريخى»، يقول الدكتور: نصار:

التي تسعى أجهزة الاتصال وجماعات الرأى وغيرها إلى التأثير فيها.

فالموثرات التى تحيط بالإنسان ليست هى السبب المباشر فى الاستجابة للبيئة، ولكن معنى هذه المؤثرات، أو صورتها فى ذهن الإنسان، هى التى تحدث الاستجابة. ولما كانت البيئة الموضوعية أعظم وأعمق من أن تفهم فهما مباشراً، فلا بد للإنسان أن يبسطها ويختصرها فى شكل صور، أو رموز يستجيب لها فى بساطة ويسر.

وهكذا يتكون للفرد عالم خاص به، كما يتكون للجماعة عالم خاص بها... ولا شك أن «الاتصال» هو الذى يلعب أهم الأدوار فى تكوين هذه البيئة الثقافية التى تتكون من مجموعة المفاهيم والصور والأخيلة.

وتأسيساً على هذا الفهم نذهب فى تفسير أدب الرحلات، مذهب التفسير الإعلامى، ذلك أن الأدب يحقق مفهوم «الاتصال الفكرى» بواسطة الرموز فى مواجهة الواقع، والأدب هنا يطور أفكاراً عن أشياء خارجية أو داخلية - ويغلف

والشتاء التجاريتين إلى الشام واليمن، ووجدناهم يرددون الحديث عن رحلات تبَّع الأكبر في مشارق الأرض ومغاربها حتى أعلن بعض العلماء أنه ذو القرنين المذكور في سورة الكهف من القرآن الكريم، ووجدنا أخباراً مبهمة عن رحلات لهم إلى الساحل الغربي من الهند والساحل الشرقي من إفريقيا.

وتكثر آثار هذه الرحلات الجاهلية وأمثالها في ألفاظ اللغة العربية والقرآن والحديث والنقوش والآداب الخاصة والشعبية: مثورة ومنظومة. ولكننا لن نتعرض لها بالحديث، ونقصره على الرِّحلات التي كانت بعد الإسلام.

لم يقف بعد ذلك عند زمن، بل استمر في التناول إلى العصر الحديث، ولكن هذا العصر أنتج من الرِّحلات أكثر مما أنتجت القرون السابقة مجتمعة، على حد تعبير الدكتور حسين نصار، مما يجعل الإحاطة بهذا الإنتاج عسيرة، وتحتاج إلى جهود كبيرة، ووقت طويل، ولذلك ستوجه العناية الكاملة إلى العصور

(الحركة واحدة من خصائص الكائن الحي، تكون أبسط ما تكون في الكائنات الدنيا، وتندرج في التمام مع تدرج هذه الكائنات في الارتقاء، حتى تصل إلى الانتقال من موضع إلى آخر، وهو ما سمَّته اللغة: الرِّحلة).

وقد يقصُر مدى الرحلة حتى تكون انتقالاً من موضع إلى آخر مجارور له، أو كما تفعل بين أعشاشها وحقول الثمار، أو مخازن الغلال، والوحوش بين أوكارها ومواطن فرائسها. وقد يطول حتى تكون انتقالاً من قارة إلى أخرى.

ولا أشك أن كثيراً من القراء شاهد، أو سمع، أو قرأ عن هجرة أصناف من الطيور بين المناطق الباردة والدافئة في الشتاء والصيف، مثل السَّمان وأمثلة مما ينتقل بين أوروبا والساحل الشمالي من إفريقيا.

وإذا فالرحلة أمر طبيعيّ عند الإنسان، عرفه منذ عرف الحياة على هذا الكوكب».

فإذا انتقلنا بأبصارنا إلى العرب قبل الإسلام، وجدنا لديهم رحلتى الصيف

٤٦/٣٠.

ويكشف لنا «أدب الرحلة» عن «ملكة شخصية»، يتمتع بها العقل العربى، يصح أن تسمى عبقرية الترحال، ونعتقد مع أستاذنا العقاد أن هذه الملكة الشخصية التى تكمن وراء الروائع فى أدب الرحلات، مستمدة من ملكة قومية أصيلة فى الأمة التى يخرج منها أولئك الرحالون، لأن معظم الرحالين الكبار خرجوا من أمم تعود أبنائها الرحلة كالعرب والفينيقيين والإغريق والبنادقة والبرتغاليين، والإنجليز فى العصور المتأخرة. وأكثر الرحالين الكبار الذين اشتهروا فى التاريخ نسب إليهم الفضل فى الكشوف الجغرافية، هم من أبناء هذه الأمم، أو أبناء أمم تشبهها فى البداوة والاشتغال بالملاحة.. ملكة شخصية مستمدة من ملكة قومية، هذه هى عبقرية الرحلة التى عبر عنها العقاد، الذى يعتقد إلى جانب ذلك أن هذه العبقرية تظهر فى صور كثيرة غير صورة الرحلة الخارجية، ومنها الرحلة فى داخل النفس

السابقة، وأكتفى فى العصر الحديث باللمسات. ومن أسباب ذلك أن الكتاب لن يقتصر على الرحلات التى خرجت من قطر ما، أو انتهت إلى قطر، أو كتبها أبناء قطر، وإنما سيشمل جميع الأقطار التى أسهمت فى النتاج العربى.

ثم يقسم الدكتور حسين نصار الدواعى إلى الرحلة قسمين: دواعى هياها المجتمع فيسرت الرحلة لمن يريد أن يقوم بها وشجعتة عليها، وهذه نسميها «مسيرات الرحلة»، ودواعى شخصية دفعت كل واحد من الرحالة على حدة إلى أن يقوم برحلته، وهذه نسميها «أسباب الرحلة».

مسيرات الرحلة:

نستطيع أن نصنف هذه الميسرات على النحو التالى:

حث الإسلام على السياحة لأسباب متعددة، مثل التأمل فى المخلوقات والاتعاظ من آثار الأمم البائدة، فوردت فى القرآن عدة آيات تقول: ﴿فسيروا فى الأرض﴾ [١٣٧/٣]، أو ﴿قل سيروا فى الأرض﴾ [١١/٦]، ٢٧/٦٩، ٢٩/٢٠،

ميسر السفر والإقامة وسهولة التفاهم. فقد انتشرت العربية انتشاراً سريعاً، وصارت اللغة الرسمية، ولغة الدين والعلم في العالم الإسلامي كله، ولغة التفاهم بين الشعوب في الدول العربية كلها. ولذلك لم يجد الرحالة مشقة في التفاهم داخل دولة الخلافة، وإنما كانت المشقة تبرز خارجها.

وعلى الرغم من ذلك استطاع الرحالة أن يذللوها. ولا يحتاج العصر الحديث إلى كلام، لأن أغلب الرحالة يستخدمون الإنجليزية والفرنسية في التفاهم، وهما لغتان لا يصعب عليك أن تجد من يتحدث بإحدهما في أى مكان.

كذلك تبين لنا رحلة ابن بطوطة أنه كان يعرف اللغة الفارسية (١)، ثم عرف التركية بعد مدة. قال في حديثه عن أنطالية من مدن الأناضول: «في الثاني من يوم وصولنا إلى هذه المدينة، أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين

أو في عالم الخيال. وبين كبار الرحالين من هذا الطراز أناس لم يفارقوا مكاناً واحداً خلال عشرات السنين كأبي العلاء المعري! فإنه سمى نفسه رهين المحبين لملازمته داره وحبسه في جسده ولكنه شاء أن يرحل في كتاب من كتبه وهو رسالة «الغفران» فلم يقنع بأقل من الرحلة إلى السماء.

و«كجول فيرون» الكاتب الفرنسي الحديث فإن ما رآه من جوانب الأرض بالقياس إلى المشاهدات الماثورة عن كبار الرحالين شيئاً لا يذكر، ولكنه ساح بخياله في جو الأرض وفي أعماق البحار وفي أجواء السماء، بل ساح في عالم الغيب ووصف الناس مخترعات لم تخترع بعد، ثم اخترعت في أوانها فإذا هي كما وصف! حتى قال: «لوثر» القائد الفرنسي الكبير إن الناس اليوم: يعيشون في أحلام جول فيرون.

ويذهب أستاذنا الدكتور : حسين نصار إلى أن الميسرات في أدب الرحلة،

(١) الرحلة، ص: ٥٠٩، ٥٣٤.

الحموى، وتكلم معه باللسان التركي، ولم أكن يؤمئذ أفهمه» (١).
ومن الطبيعي أن كثيراً من الرحالة لم يكونوا يعرفون غير العربية، وربما الفارسية، ولكن بعضهم سافر في وفود اشتملت على من يعرف غير العربي. فقد كان الوفد الذي سافر مع أحمد بن فضلان إلى جنوب نهر الفولجا في روسيا يضم تكين التركي، وبارس الصقلاني وسوسن الرسى مولى نذير الخرمى، والمعتقد أنهما كانا يعرفان السلافية (٢).
ولم تعدم البلاد الأجنبية من كان يعرف اللغة العربية، سواء من عرفها من أبنائها، أو من العرب الذين اتخذوها مقراً لهم، فكانوا يقومون بالترجمة بين المتفاهمين (٣).
بل عرف كثير من حكام البلاد غير العربية وأعلامها العربية، وإن لم يحسن الحموى، وتكلم معه باللسان التركي، ولم أكن يؤمئذ أفهمه» (١).
ومن الطبيعي أن كثيراً من الرحالة لم يكونوا يعرفون غير العربية، وربما الفارسية، ولكن بعضهم سافر في وفود اشتملت على من يعرف غير العربي. فقد كان الوفد الذي سافر مع أحمد بن فضلان إلى جنوب نهر الفولجا في روسيا يضم تكين التركي، وبارس الصقلاني وسوسن الرسى مولى نذير الخرمى، والمعتقد أنهما كانا يعرفان السلافية (٢).
ولم تعدم البلاد الأجنبية من كان يعرف اللغة العربية، سواء من عرفها من أبنائها، أو من العرب الذين اتخذوها مقراً لهم، فكانوا يقومون بالترجمة بين المتفاهمين (٣).
بل عرف كثير من حكام البلاد غير العربية وأعلامها العربية، وإن لم يحسن

كثير منهم التحدث بها (٤).
عوامل شخصية عامة: لا أشك أن شخصيات الرحالة كانت من العوامل المهمة التي دفعتهم إلى الأسفار. ومن الطبيعي أن الرحالة يمتازون عادة بحب المجازفة والمغامرة. وقد وصل الإحساس بالفردية في عصر الازدهار الحضارى إلى أوجه، فكان وراء الرحلات. ويسر لهذا الشعور أن يمارس ما أحب من مغامرات: اتساع رقعة الدولة (أو الدول) الإسلامية، ويسيطر السلطة التنفيذية وهيمنتها على أرجائها، وإشاعة الأمن في أكثر أنحائها، وحرية التنقل حتى بين الأقطار التي خضعت لحكومات إسلامية مختلفة، بل بين البلاد التي خضعت لحكومات غير إسلامية أيضاً، كما صور ابن جبير التنقل بين المنطقة الإسلامية والمنطقة غير الإسلامية في أثناء الحروب الصليبية، والسفر على سفن غير إسلامية.

(١) المرجع السابق، ص: ٢٨٦.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٣، ٨٩.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ص: ٦٧٧.

(٤) المرجع السابق، ص: ٥١٣، د. حسين نصار، أدب الرحلة، ص: ١٥.

وقال ابن وكيع التنيسى يعدد فوائد

الرحلة ويرد على عيونها:

تغرب على اسم الله، والتمس الغنى

وسافر، ففى الأسفار خمس فوائد

تفرج نفس، والتماس معيشة

وعلم، وآداب، ورفقة ماجد

فإن قيل: فى الأسفار ذل وغربة

وتشتت شمل، وارتكاب شذائد!

وتصور أقوال العلماء - وأخص

الجغرافيين والمؤرخين منهم - إيمانهم

بتلك الفوائد. وقد مر بنا ما قاله المقدسى

فى هذا الشأن، ونتممه بقوله التالى:

جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد

صنفوا فى هذا الباب، وإن كانت

(مصنفاتهم) مختلفة، غير أن أكثرها بل

كلها سماع لهم. ونحن لم يبق إقليم إلا

وقد دخلناه، وأقل سبب إلا وقد عرفناه.

»يضاف إلى ذلك بساطة العيش التى

كان الرحالة المسلمون يحيونها،

وينشدونها فى أسفارهم أو أكثر، مما

جعلهم لا يحسون بالفقد، أو الحرمان

الكبير فى تطوافهم» (١).

ويذهب د. نصار إلى أن الإيمان

بفائدة الرحلة يظهر فى النصوص المتنوعة

التى تشير إلى أن الناس آمنوا إيماناً عميقاً

بالفوائد الجمة التى تمنحها الرحلات

للقائمين بها. ويصور الشعر الإيمان

الشعبى بذلك. قال أبو تمام.

وطول مقام المرء فى الحى مُخلق

لديساجتيه، فاغترب تجدد

فإنى رأيت الشمس زبدت محبة

إلى الناس أن ليست عليهم بمرمد (٢)

فللموت خير للفتى من مقامه

بدار هوان بين ضد وحاسد (٣)

(١) كراتشكوفسكى، ص: ٢٨٨، ٤٨١، زكى محمد حسن، ص: ١١: ٦، شوقى ضيف، ص: ١٦،

حسنى محمود حسن، ص: ١٢٩، ٥٠.

(٢) الصولى: أخبار أبى تمام، ص: ٦١.

(٣) ديوانه، ص: ٤٣.

وما تركنا - مع ذلك - البحث والسؤال والنظر في الغيب . فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام: أحدها ما عايناه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره . . فكم بين مَنْ قاسى هذه الأسباب وبين مَنْ صَنَّفَ كتابه فى الرفاهية، ووضعه على السماع، ولقد ذهب لى فى هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم.

إلى أن يقول د. حسين نصار: «وان لم نكتف بالأقوال فلنرجع إلى الأعمال، ولنظّل على الرحلات التى قام بها العلماء من أمثال البيرونى والمسعودى وابن اليطار ليتمموا مؤلفاتهم» (١)

ويذهب د. نصار إلى أن أطراف ما عثرت عليه الدعاية الواسعة التى اضطلع بها الكتاب لجلب محبى السفر إلى أماكن معينة. وسلكوا فيها مسلكين:

الأول وهو الأقدم: تعديد فضائل المكان الذى يكتبون عنه ومحاسنه، سواء كان هذا المكان قطراً مثل كتاب: الأنعام

بفضائل الشام». لشمس الدين السيوطى .
الملك الثانى : الدعوة الصريحة إلى الزيارة، كأن الكتاب أحد منشورات مكاتب السياحة، وغثل لهذا النوع من الكتب بكتاب: «الإشارات فى أماكن الزيارات «لحمود العدوى»، و«مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام» لأحمد المقدسى، و«مثير الغرام فى زيارة الخليل عليه السلام «لإسحاق التدمرى.

ثم يشير إلى تقسيم الأستاذ: محمد الفارسى الرحلات - حسب أسبابها وأهدافها - إلى خمسة عشر قسمًا، جعلها على النحو التالى:

١ - الحج : وهى التى يضعها صاحبها بعد رجوعه من قضاء فريضة الحج .
٢ - السياحة : وهى التى غاية واضعها السياحة مطلقاً.

٣ - الرسميّة: وهى التى يرافق الرحّالة فيها الملوك ورجال الدولة فى أسفار رسمية .

الأول وهو الأقدم: تعديد فضائل المكان الذى يكتبون عنه ومحاسنه، سواء كان هذا المكان قطراً مثل كتاب: الأنعام

(١) د. حسين نصار، المرجع السابق، ص : ٦ .

- ٤ - الدراسية: وهى التى يتغرب فيها الرحالة فى طلب العلم، ولقاء المشايخ الكبار، وارتياك المكاتب الشهيرة.
- ٥ - الأثرية: وهى التى تكون الغاية منها البحث عن الآثار ووصفها.
- ٦ - الاكتشافية: وهى التى قام بها أصحاب بقصد اكتشاف بلاد جديدة، أو الاطلاع على أحوالها.
- ٧ - الزيارية: وهى التى يقصد صاحبها من سفره زيارة أضرحة الأنبياء والأولياء ومشاهدتهم.
- ٨ - السياسية: وهى التى ترجع أسبابها إلى قضايا سياسية بين بلدين.
- ٩ - العلمية: وهى التى تدفع لها غاية علمية مثل مؤتمر علمى، أو دراسة أحوال بلد، أو ناحية من النواحي.
- ١٠ - المقامية: وهى التى سببها كاتبها فى قالب المقامات.
- ١١ - الدليلية: وهى التى يصف كتابها البلاد التى دخلوها دون أن يذكروا أحوالهم الخاصة وتاريخ ورودهم
- وصدورهم ولا شيئاً مما حدث لهم.
- ١٢ - الخيالية: وهى التى وضعها مؤلفوها على لسان رحالة وهمى سافر فى الماضى إلى إحدى حواضر العلم والثقافة ووصف أحوالها.
- ١٣ - الفهرسية: وهى التى يقتصر مؤلفها على ذكر الشيوخ الذين قرأ عليهم، والكتب التى درسها معهم.
- ١٤ - السفارية: وهى التى تكون الغاية منها القيام بسفارة لدى دولة أجنبية.
- ١٥ - العامة: وهى التى تجمع كثيراً من الأغراض السابقة.
- ولكننا نرى أن صاحب هذا التقسيم عنى بالجزئيات، فتداخلت عنده أقسام، وفاته أخرى، ويؤثر د. نصار أن نقسم الرحلات - حسب أسباب القيام بها - إلى الأقسام التالية:
- الدينية:**
- فرض الحج إلى الكعبة فى مكة المكرمة فى الجاهلية، وأقره الإسلام بعد أن

طهرها من الأصنام، فتوافد عليها المئات من المسلمين ثم الآلاف، وأخيراً زاد العدد على المليون، حتى اضطرت الدولة السعودية إلى وضع الضوابط.

وكان من الطبيعي أن يتسامر هؤلاء الحجاج مع ذويهم بالحديث عما وقع لهم في سفرهم، وما قاموا به في مناسكهم، ويصفوا ما شاهدوه في طريقهم، وفي مكة بخاصة، غير أن بعضهم أضاف التدوين إلى السمر الشفوي.

أضيف إلى ذلك زيارة قبر الرسول الكريم ﷺ في المدينة المنورة، التي يقوم بها أكثر الحجاج وإن لم تكن فرضاً عليهم.

وقد عُنيت الحكومات الإسلامية المختلفة بالطرق إلى مكة فمهدتها، وحفرت فيها الآبار، وأقامت المعالم، كما شيدت في مكة والمدينة الأوقاف والتكايا لمعونة الحجاج.

وطبيعي أن الدافع إلى الحج كان أداء الفرض طاعة لله. ولكننا نعرف دافعاً هاماً يمكن إضافته إلى ذلك، وهو التكفير

عما ارتكبه المسلم من الذنوب.

وقام بعض الرّحالة بالحجّ شكراً لله. روى عبد الله حسين السويدي (١١٠٤ - ١١٧٤ هـ/ ١٦٩٢ - ١٧٦٠م) أن نادر شاه ملك إيران عنت له فكرة إقامة مناظرة كبرى بين علماء الشيعة بالنجف وكريلاء وعلماء السنة من أفغانستان وما وراء النهر. وأجبر أحمد باشا والي بغداد السويدي على المشاركة فيها ممثلاً لعلماء السنة بالدولة العثمانية. وجرت المناظرة فعلاً قرب النجف في شتاء عام ١١٥٦ هـ/ ١٧٤٣م. ووفق السويدي فقرر أن يحج إلى بيت الله شكراً له. ثم وصف ما وقع له وأحداث رحلته في كتاب «النفحة المسكية في الرحلة المكية»، الذي توجد قطعة منه في كتاب آخر له عنوان «الحجج القطعية لاتفاق الفرق الإسلامية».

كذلك يروى من ترجموا لابن جبير أنه قام بثلاث رحلات للحج لا واحدة أما أولاهما فتلک التي دون وقائعها، وفندنا سببها المزعوم. وأما الثانية فيقولون إنه

لا يسع تركها بعد الاستطاعة عليها أحداً من الأنام. بهذا تعلق آماله، وعليه كان عن الخلافة انفصاله، إلا أن أمر الحج طوى على الناس في هذه الحركة ذكره، وأخفى عنهم أمره. وسبب ذلك أنه ما علم في تدبير الرعية من حسن غنائه، وما اجتمعت عليه قلوب.

ويذهب د. نصار إلى أنه في الثالث عشر من أبريل ١٧٥٥م (١١٦٨هـ) خرج من حلب إلى فلسطين مسيحياً من الروم الكاثوليك يُدعى إلياس الغضبان الحلبي، خرج في صحبة راهبين، ثم عاد من رحلته في السابع والعشرين من مايو من السنة نفسها. وذكر هذه الرحلة في كتاب جعله قسمين عالج في الأول منهما الكلام عن الرحلة نفسها، ووصف في الثاني الأماكن المقدسة التي زارها.

وأما المسلمون فكانوا يعدّون القدس أولى القبلتين، ومبدأ المعراج، وثانثة الحرمين، وأرض الأنبياء، وموطن التهديد من الصليبيين واليهود، فتقاطروا على

قام بها لما شاع الخبر المبهج باستعادة صلاح الدين الأيوبي للقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م. وقد نستشعر من هذا القول أنه قام بذلك شكراً لله، أو إرادة تهتة السلطان المنتصر الذي كان ابن جبير يحمل له الحب والتقدير، أو إرادة المشاركة في الأفراح وزيارة القدس، فإننا لا نعرف خطأ سيره في هذه الرحلة التي لم يدون أحداثها.

وأدى أبو محمد عبد الله بن محمد التجاني (١) (٦٧٠ أو ٦٧٥هـ - بعد ٧١٧هـ/١٢٧٢ أو ١٢٧٦ — ١٣١٧م). الحج في رفقة أمير تونس أبي يحيى زكريا ابن أحمد المشهور باللحاني، الذي كتب هذه الرحلة. قال التجاني: «فكان خروجي من تونس المحروسة صحبة الركاب العلى المخدمى الليمومى - أعلى الله مقامه، وأطال في العزّ دوامه - في آخر جمادى الأولى من عام ستة وسبعمئة. وكان مراده منها بالقصد الأول إنما هو التوجّه لأداء فريضة الإسلام، التي

(١) في اسمه خلاف، د. حسين نصار، المرجع السابق، ص: ١٩.

زيارتها، وأصدروا الكتب الكثيرة التي تعدد فضائلها وتدعو إلى الرحيل إليها.

ويمكن أن نمثل لهذه الكتب بكتاب: «إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى»، الذي ألفه شمس الدين محمد ابن أحمد السيوطي سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩هـ، وهو في القدس، ثم نقّحه في ٨٨٠هـ/١٤٧٦م. وعلى الرغم من أنه وصف للمسجد الأقصى وتاريخ له، فإنه يتحدث عن فلسطين بل الشام كلها.

وهذا الكتاب «أدب الرحلة» لأستاذنا الدكتور: حسين نصار: إضافة حقيقية لكتب الرحلات التي تزخر بالمعلومات الدقيقة عن المناطق التي زارها الرحالة والشعوب التي أقاموا فيها، ولذلك أفلحت هذه الكتب في أن تجذب إليها القراء نظراً لابتعادها عن أسلوب العرض العلمي الجاف رغم التزامها بالدقة والأمانة بقدر الإمكان، إلى جانب ما فيها من عنصر الخلق والإبداع الذي تخلو منه الكتب العلمية، بل أن بعض كتب الرحلات وجد من الإقبال والرواج ما لم

تلقه بعض روائع الأعمال الأدبية، وخير مثال لذلك الأديب الشاعر «جوته» الذي يقال أن رحلته الشهيرة إلى إيطاليا جذبت من القراء أضعاف جذبة أى كتاب أو مسرحية، أو رواية أخرى من أعماله، بما في ذلك «آلام فرتر»، و«فاوست»، ولا يزال أدب الرحلات يؤلف فرعاً من أهم فروع الكتابة في الآداب الغربية، على حد تعبير الدكتور: أحمد أبو زيد.

ويشير تحليل مضمون أدب الرحلة إلى أن بعض الرحلات كان باعثها نشر الإسلام، وتعليم فرائضه. وأهم رحلة قامت لهذا السبب رحلة أحمد بن فضلان الذي بعثه الخليفة المقتدر بالله في الحادي عشر من صفر سنة ٣٠٩هـ/٢١ يونيو ٩٢١م في رحلة إلى بلاد الترك والبلغار والخرز والروس والصقالية، تلبية لطلب من ملك الصقالية، حكاه ابن فضان في قوله: «لما وصل كتاب ألمش بن بلطوار ملك الصقالية، إلى أمير المؤمنين المقتدر (٢٠٥ - ٣٢٠هـ)، يسأله فيه البعثة إليه، ممن يفقهه في الدين، ويعرفه شرائع

في استهلاك هذا التقديم، ذلك أن المقصود بها أنها مفهوم عقلى شائع بين أفراد جماعة معينة يشير إلى اتجاه هذه الجماعة الأساسى نحو شخص معين، أو مجتمع معين، أو فلسفة معينة. والصورة الذهنية بهذا المفهوم يمكن التعرف عليها، كما يمكن تنفيذ برامج لتدعيمها. أو تطويرها على نحو معين. ثم تأتى عملية التقييم للتعرف على أثر هذه البرامج.

ويذهب الدكتور: نصار إلى أن طلب العلم من أقدم الأسباب التى دفعت الناس للقيام بالرحلات. فعل ذلك الحارث بن كلدة الطبيب، والنضر بن الحارث الأديب، فى الجاهلية.

وفى الإسلام ارتبط طلب العلم بالرحلة ارتباطاً واسعاً، وكان من العنوم الإسلامية ما يرتبط بالرحلة ارتباطاً عضوياً لانفصام له، مثل الجغرافيا، ولذلك نجد الجغرافيين المسلمين من الرحالة، بل لا يكتفون برحلاتهم ويأخذون عن التقوا بهم من الرحالة أيضاً. ولا يشذ عن ذلك إلا قليلون ممن

الإسلام، ويبنى له مسجداً، وينصب له منبراً ليقم عليه الدعوة له فى بلاده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له. فأجيب إلى ما سأل من ذلك.

وذلك يفيد الإعلام الإسلامى من دراسة أدب الرحلة، فى دراسة صور الشخصيات القيادية، والمجتمعات الإسلامية وفى العصر الحديث قام أحمد فارس الشدياق (١٢١٩ - ١٣٠٤هـ/ ١٨٠٤ - ١٨٨٧م) برحلتين. كانت أولاهما إلى جزيرة مالطة، التى دعاه حاكمها فى عام ١٨٣٤ للتعليم فى مدارسها، وتصحيح ما يصدر من مطبعتها من كتب عربية. وكانت الثانية إلى إنجلترا سنة ١٨٤٨، بدعوة من جمعية ترجمة الأسفار المقدسة، ليسهم فى ترجمة التوراة إلى العربية تحت إشراف المستشرق الدكتور لى.

ومما يقدمه د. نصار فى هذا الكتاب ودرسته لضمون الرحلات يتضح لنا مفهوم «الصورة الذهنية» الذى تحدثنا عنه

وكان من العلوم ما ارتبط بالرحلة شديداً، غير أنه لا يبلغ مبلغ ارتباط الجغرافيا بها، مثل النبات والتاريخ، وفعلاً اعتمد النباتيون مثل أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بابن الرومية (المتوفى ٦٣٧هـ/١٢٣٩م). والمؤرخون مثل المسعودي أبي الحسن على بن الحسين (المتوفى ٣٤٦هـ/٩٥٦م) والبيروني أبي الريحان محمد بن أحمد (٣٦٢ - ٤٤٠هـ / ٩٧٣ - ١٠٤٨م) والسمعاني أبي سعيد عبد الكريم بن أبي بكر (٥٠٦ - ٥٦٢هـ / ١١١٣ - ١١٦٧م) على الرحلات في إتمام كتبهم القيمة.

بل أفادت من الرحلات وعلوم واهية الصلة بها، مثل الطب كما يظهر في رحلتى عبد اللطيف البغدادي وعبد الباسط الظاهري، والتاريخ الأدبي كما يظهر في كتاب «نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب» للمقرئ أحمد بن محمد (١٠٠٠ - ١٠٤١هـ / ١٥٩١ - ١٦٣٢م).

وقد قسم المفكرون المسلمون العلوم إلى

لم تكن الجغرافيا همهم الأساسى، مثل أبى عبيد الله بن عبد العزيز البكرى (المتوفى ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م).

ويكفى أن أشير إلى ما جرى فى أثناء تأليف الشريف الإدريسي أبى عبد الله محمد بن محمد (٤٩٣ - ٥٦٠هـ / ١١٠٠ - ١١٦٠م) كتابه: «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، قال الصفدى يحكى عن روجر الثانى ملك صقلية: «فقال له: أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعينة لا بما ينقل من الكتب»، فوقع اختيارهما على أناس ألباء فطناء أذكىاء، وجهزهم رجار إلى أقاليم الشرق والغرب: جنوباً وشمالاً. وسفر معهم قوماً مصورين ليصورورا ما يشاهدونه عياناً. وأمرهم بالتقصى والاستيعاب لما لا بد من معرفته. فكان إذا حضر أحد منهم بشكل أثبتته الشريف الإدريسي حتى تكامل له ما أراد، وجعله مصنفاً» (١)، ومن الطبيعى أن هذه حالة فريدة، ولكن الأخذ عن الرحالة الأفراد كان كثيراً.

(١) كراتشكوفسكى، ص: ٣٠٨.

اجتمعت كل هذه العوامل ، مع ندرة الكتب فى أول العهد الإسلامى ، فجعلت من الرحلة من أجل طلب العلم أمراً شائعاً كل الشيوع ، وبسبب البعد ، انتهز علماء المغرب بخاصة رحلة الحج - كما رأينا - للأخذ عمن يلتقون بهم من العلماء ، بل السعى إلى اللقاء بهم والأخذ عنهم مما جعل هذه الرحلات تستغرق سنوات .

وعلى الرغم من ذلك كان عدد المغاربة الرّاحلين إلى المشرق لطلب العلم دون أن يستهدفوا الحجّ أو التجارة كبيراً . وقد أورد المقرئ (١) أسماء ٢٨٠ شخصاً من الأندلسيين وحدهم الذين فعلوا ذلك ، مصحّباً ذلك باعتراف منه بأنه لم يستوعب كل الأسماء . ولا حظ كراتشوفسكى بحق أن طابع الرحلة فى طلب العلم طغى على ما عداه من أنواع الرحلات الأخرى فى المغرب منذ القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى ، ولا يلبث أن يتسع نطاق انتشاره على عمر

نقلية ، وعقلية . أما النقلية فيراد بها العلوم التى ينقلها التلميذ عن شيوخه ويرويها منسوبة إليه . أما العقلية فالتى تعتمد على التفكير العقلى .

وقد فرضت العلوم النقلية على مبتغيها الرحلة إلى منابعها ، فرحل اللغويون والنحويون ورواة الشعر إلى القبائل الخالصة للأخذ عنها . ورحل المحدثون إلى الصحابة ، لأنهم عايشوا النبى ﷺ وأخذوا عن فمه ، ورووا عنه معانيه ، ثم رحلوا إلى من أخذ عن أفواه هؤلاء الصحابة . ومن ثم صغّروا من أمر من يأخذ من الكتب ، وسموهم الصحفيين ، وجعلوا من الرحلة إلى الشيوخ ما يشبه الفريضة .

ولما كان الصحابة قد تناثروا فى بقاع مختلفة من العالم الإسلامى ، فقد اضطر طالبو الحديث إلى السفر وراءهم فى هذه البقاع ، وخاصة أن كثيراً منها صارت مراكز علمية ازدهر فيها علم الحديث وغيره من العلوم الإسلامية .

(١) د . حسين نصار ، المرجع السابق ، ص : ٣٤ .

القرون حتى يبلغ الأوج بوجه خاص في العهد التركي (١).

وأقدم رحلة بلغتنا من هذا النوع هي رحلة الإمام الشافعي محمد بن إدريس (١٥٠ - ٢٠٤هـ / ٧٦٧ - ٨٢٠م).

ذكر الدكتور: شوقي ضيف أن الإنسان ولد راحلاً، فإذا أعجزته الرحلة، تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، نجد ذلك مثبتاً في الأساطير الأولى، كما نجد ماثلاً في الحروب والفتوح القديمة، وما سطره الملوك الأول في مصر وغيرها. وذكر الدكتور: حسني محمود حسين أن الإنسان توسّع برحلاته على مدى الدهور، ولم يعد يقصرها على سطح الكرة الأرضية، فراح يتشوف رحلات أعجزته قدرته عن تحقيقها بالفعل، فلجأ إلى خياله وفكره يجوس بهما خلال عوالم ودُنَى أخرى.

وإذا كان التفسير الإعلامي يذهب إلى أن كل تجربة جديدة تجد مكانها في التصور الذي نكوّنه عن العالم من خلال

أدب الرحلات، فإن كتاب «أدب الرحلة» يجعل مكانه في هذا الفهم، بحيث يسهم في دعم «نتائج» الرحلة، ويؤيد التصور الأساسي للعلاقات الإسلامية، ذلك أن أي تجربة جديدة في أدب الرحلات، يتم استقبالها في ضوء التفسير الإعلامي بطريقة من أربع:

— إما أن تضيف إلى التصور القائم معلومات جديدة .

— وإما تدعم التصور القائم .

— أو تحدث مراجعات طفيفة على هذا التصور .

— أو ينتج عنها إعادة بناء كامل للتصور .

وتأسيساً على هذا الفهم يذهب أحد العلماء إلى أن الكيفية التي يتصرف بها الإنسان تعتمد على «الصورة الذهنية»، وأن أي تغيير يصيبها يستتبع بالضرورة تغييراً في السلوك.

وعلى ذلك يعتبر من الأمور الهامة

(١) المرجع السابق ، ص: ٣٤ .

التي يجب أن يهتم بها المعنيون بالتأثير في الرأي العام، أو قياس اتجاهات الجماهير، فهم طبيعة الصورة الذهنية وكيفية تشكيلها والتغيير الذي يطرأ عليها.

— الصورة المثلى: وهي أمثل صورة يمكن أن تتحقق إذا أخذنا في الاعتبار منافسة المنشآت والدول وجهودها في التأثير على الجماهير، ولذلك يمكن أن تسمى الصورة المتوقعة.

ونستطيع أن نقول — إذن — أن مفهوم «الصورة الذهنية» في أدب الرحلات بعامه — وفي الأدب العربي بخاصة — إنما يعنى: الانطباع الصحيح، الذي تكون عند الكاتب، وهو الأمر الذي يجعلنا نستعير من «جفكينز» تعبيره عن «الصورة الذهنية لانطباقه على أدب الرحلات وما يقدمه من صور ذهنية. ذلك أن هذه الصور إما أن تكون:

— الصورة المرآة: وهي الصورة التي يرى فيها المجتمع نفسه من خلالها.

— الصورة الحالية: وهي التي يرى بها الآخرون هذا المجتمع، أو هذا البلد.

— الصورة المرغوبة: وهي التي تود دولة ما أن تكونها لنفسها في أذهان الجماهير.

يقول الدكتور حسين نصار: وتدل أخبار الرحلات التي وصلت إلينا أن الرحلات السفارية عند العرب كثيرة كثرة

هذا الكتاب يصحبك مع أدب عربى يستمد أصالته من التاريخ والحضارة واللغة، ومن الدين السماوى العظيم: الإسلام، ومن بيئة هذه الأرض التى تعاقبت عليها الحضارات القديمة، ونزلت فيها الرسائل السماوية المقدسة طيلة آباد بعيدة موعلة فى القدم.

أجل : فلقد تمثل أدب الرحلة للأبعاد الشخصية العربية التى عاشت مع الحضارة الإسلامية فى المدن العربية المزدهرة، ثم تلاقت فيها ثقافات الغرب والشرق، وتفاعلت مع الحياة والمجتمع الإنسانى كله، وكافحت من أجل النهضة والتقدم والرخاء، وبذلت وضحت فى سبيل تحقيق السيادة والرفاهية لشعوبها، وصنعت تاريخاً مجيداً لوطنها، بل صنعت الكثير من أجل إثبات أن الأمة العربية جديرة بما حصلت عليه من حقوق، وحرية بمستقبل عظيم يوازي ماضيها العظيم..

لافتة للنظر، وأن الجناح الغربى فاق الجناح الشرقى فى عدد الرحلات واتساع مجالها.

وأخيراً وجدت رحلات سفارية فى داخل رحلات عامة. ويتمثل هذا عند ابن بطوطة، الذى بدأ بغرض الحج، ثم غلب عليه حب السفر فدفعه إلى الرحلات المتعددة.

وعندما أراد سلطان الهند محمد شاه ابن تغلق أن يرسل سفارة إلى الصين اختار ابن بطوطة ليكون سفيره. وقد ترك لنا الرحالة وصف هذا الاختيار فى قوله: (بعث إلى السلطان خيلاً مسرّجة وجوارى وغلماناً وثياباً ونفقة، فلبست ثيابه وقصدته.. ولما وصلت إلى السلطان زاد فى إكرامى على ما كنت أعهده، وقال لى: «إنما بعثت إليك لتتوجه عنى رسولا إلى ملك الصين، فلبنى أعلم حبك فى الأسفار والجولان»، فجهّزنى بما احتاج إليه، وعيّن للسفر معى من يُذكر بعد..(١).

(١) د. حسين نصار، المرجع السابق، ص: ٣٧٧.